عنوان البرنامج: مدخل لدراسة التصوف
الوحدة الثالثة: أصول التقويم الداخلي للتصوف
الدرس الثالث: السراج الطوسي والتمهيد لأصول التقويم الذاتي
اسم المحاضر: الدكتور عبد الصمد غازي

السراج الطوسي والتمهيد لأصول التقويم الذاتي

يعتبر السراج الطوسي من الممهدين الأوائل الذين أولوا عنايتهم الخاصة لأصول النقد الذاتي للواقع الأخلاقي، حيث أفرد أجزاء ليست بالقليلة من تأليفه اللمع لبيان الأسس التي يقوم عليها طريق القوم، من حاد عنها فهو دعي غالط مخدوع، ليأتي بعده أبو عبد الرحمن السلمي ويفرد غلطات الصوفية برسالة سار فيها على نهج سابقه الطوسي، وتتوالى المؤلفات التقويمية سائرة على نفس النهج من التنظير والتأصيل والتمييز بين الصحيح والسقيم، والأصيل والدخيل، فكانت رسالة القشيري وكشف المحجوب للهجويري، وجل رسائل الغزالي.

لقد بين السراج الطوسي في مقدمة اللمع أن السبب الذي حمله على تأليفه هو رفع الخلاف الظاهر بين المتعرضين لنقد التصوف والحكم عليه؛[1] ليختم الباب الأخير من مصنفه بمناقشة قضيتين أساسيتين هما مثار الخلاف والجدل في التصوف:

أولهما محاولة تأويل الخطاب الشطحي الذي نسب إلى شيوخ الصوفية لأنه لم يفهم على حقيقته، فبين مقاصد الصوفية في ذلك، شارحا ومنافحا عنهم بالحجة والدليل ضدا على خصومهم من أهل التلبيس؛ أي الذين لم يتعاملوا مع الخطاب الصوفي الشطحي بعلمية تضعه في سياق الصلة بين اللغة والتجربة، وما تفرع عنهما من نحت مصطلحات جديدة، وكذلك ضدا على المترسمين المنحرفين عن حقيقة التصوف وفضحا لهم ورصدا وتتبعا لغلطاتهم واضعا بذلك موازين الإنصاف ومعاييره، ودفعا للمكابرة والعناد والتعصب والإنكار المجرد عن الدليل الصحيح والمستند إلى الواقع الحقيقي للتصوف.

1. اللمع، للسراج الطوسي، ص 21.

ثانيهما: بيان وجوه الأغاليط وكشف عوراتها وتلبيساتها حتى لا تتخذ نموذجا تحاكم من خلاله التجربة الصوفية ككل، ليخرج بذلك جهود التقويم من التعميم إلى التخصيص باعتماد النقد الفاحص الذي يميز بين الأصل وما يعتريه من تشويه وانحراف.

إن سبب كل انزلاق وانحراف في السلوك الصوفي يرجعه الطوسي إلى مخالفة الشريعة والزيغ عنها، وعدم الالتزام بالآداب التي وضعها الصوفية. فالتصوف مبناه على ثلاثة: أولها: اجتناب المحارم كبيرها وصغيرها. والثاني: أداء جميع الفرائض عسيرها ويسيرها. والثالث: ترك الدنيا لأهل الدنيا قليلها وكثيرها؛ إلا ما لا بد للمؤمن منها.[2] «فكل من ادعى حالا من أحوال أهل الخصوص، وتوهم أنه سلك منزلا من منازل أهل الصفوة، ولم يبن أساسه على هذه الثلاثة؛ فإنه إلى الغلط أقرب منه إلى الإصابة في جميع ما يشير إليه، أو يدعيه، أو يترسم به، والعالم مقر والجاهل مدع».[3] ولذلك فالغالطون في طريق القوم ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: من غلطوا في الأصول من قلة إحكامهم لأصول الشريعة، وضعف دعائمهم في الصدق والإخلاص، وقلة معرفتهم بذلك، وإنما حرموا الوصول لتضييع الأصول.

والطبقة الثانية: من غلطوا في الفروع، وهي الآداب والأخلاق، والمقامات والأحوال، والأفعال والأقوال؛ فكان ذلك من قلة معرفتهم بالأصول ومتابعتهم لحظوظ النفس ومزاج الطبع.

والطبقة الثالثة: كان غلطهم فيما غلطوا فيه زلة وهفوة، لا علة ولا جفوة؛ فإذا تبين ذلك عادوا إلى مكارم الأخلاق ومعالي الأمور، فسدوا الخلل ولموا الشعث، (...) فعادوا إلى الأفعال الرضية والأحوال السنية.[4]

فالغلط عند السراج الطوسي يمكن تصنيفه إلى نوعين: غلط في الأصول، وغلط في الفروع. وتقسيم الغالطين إلى ثلاث طبقات؛ ووصفهم بالغلط فيه نوع من التشخيص ثم التوجيه والإرشاد إلى مدى خطورة الانحراف ومنشأه دون محاكمة نواياهم. فالغلط راجع إلى قلة الإحكام وضعف الدعائم وقلة المعارف ومتابعة الحظوظ ومزاج الطبع والزلة والهفوة. مما يترتب عليه أحكام بحسب طبقة الغالطين ورتبتها في سلم الغلط: «فمن غلط في الأصول؛ فلا يسلم من الضلالة، ولا يرجى لدائه دواء، إلا أن

2. اللمع، للسراج الطوسي، ص 516.
3. نفسه، ص 517.
4. اللمع، للسراج الطوسي، ص 518.

يشاء الله ذلك، والغلط في الفروع أقل آفة وإن كانت بعيدة عن الإصابة».[5]

ولقد أحصى السراج الطوسي الغلطات التي أخذها على المترسمين بالتصوف وأرجعها في الجملة إلى أصلين:

– عقدي ارتبط بالجهل بمعرفة الفرق بين القديم والمحدث وما يترتب على ذلك من عقائد، ويستشهد في ذلك بالإمام الجنيد شيخ الطائفة الذي جعل معرفة هذا الفرق عين التوحيد.[6]

– وسلوكي له صلة بالجهل بأحكام الشرع، أو التحلل منها.

إن الجهل بأحكام الدين أصولا وفروعا هو السبب في كل انحراف عرفه التصوف علما وسلوكا، ولم يزد أهل انتقاد التصوف على اختلاف طبقاتهم عن اجتهاد الطوسي، فلا يكاد يخرج عن إطاره من بيان المخالفات العقدية والسلوكية، وهي مبنى نقد أبي الفرج بن الجوزي البغدادي للتصوف والصوفية في كتابه «تلبيس إبليس»[7]، والذي نقل فيه كثيرا عن الطوسي؛ لكنه جنح إلى تعميم الأحكام والتفريق بين المتقدمين والمتأخرين بعيدا عن لغة الطوسي في التمييز والفحص والبناء والتقويم.

ويبدو أن الجهود النقدية التي قام بها المحققون من الصوفية هي التي نجد صداها مترددا في مختلف الأدبيات النقدية الأخرى، ولكن مع ملاحظة فارق أساسي هو أن الأخيرة أفلحت في فنون القدح بلغة فيها كثير من التعميم والتكفير.

5. نفسه، ص 519.
6. كشف المحجوب، 521/2.
7. تلبيس إبليس، ص 202.